المحاضرة الثالثة : أثر اللغويين في تطوّر النّقد العربي القديم

وقد بدأت الحركة اللغوية فى مطالع القرن الثانى من الهجرة ، عند ما تم الفتح الإسلامى واستقرت أصول الدولة الإسلامية ، وانتشر العرب فى الأقطار المفتوحة ، واتسعت معهم رقعة اللغة العربية ، وانسحب ظلها على كثير من البلدان ، فكان لانتشارها فى تلك البقاع الواسعة أكبر الأثر فى تطور الدراسات اللغوية والنقدية .

وكان القرآن دافعاً غير مباشر لانتباه سكان تلك البلاد إلى اللغة العربية ، فالقرآن كتاب العربية الأول ، ودستور الإسلام الدين الجديد . والعربية لغة المسلمين الفاتحين ، ولغة السلطان والدولة ، والأدب ، والكتابة ، والسياسة ، والحكم . وعلى من أراد الزلفى إلى كل هؤلاء أن يتقنها وينبغى أن يحفظ القرآن ليقوم من لسانه . وللقرآن ما يعين على فهمه من الثقافات مما لا ينبغى أن يفوته منها شىء ، كالتفسير ، ومعرفة الغريب ، والإلمام بالنحو والشعر ، . . وغيرها

وكان لزاماً على أصحاب السلطان وكتّابه أن يتعلموا أصول الكتابة العربية الفصيحة ، ولن يتسنى لهم ذلك دون الرجوع إلى القرآن ، وحفظه ، للاستشهاد بآياته ، وترصيع كتاباتهم بها .

ودعت الحركة الفكرية فى هذه العصور إلى التزاوج بين العقول ، والتداخل بين الثقافات ، فأقبل الفرس على تعلم القرآن ، وعلوم العربية فى حين بدأ العرب يتطلعون إلى ثقافات الفرس وغيرهم يمزجون بها تراثهم .

وجلس علماء المسلمين فى مساجد الأمصار ، والتف حولهم الناس يرتوون بالعلم ويتزودون بالمعرفة ، وكان أول ما طرقه هؤلاء من مواضيع الدرس تفسير القرآن . واشتهرت مساجد البصرة والكوفة بحلقات الدرس ، وازدهر فيهما التفسير وعلومه ، واللغة والشعر ، وكان العلماء يتناولون كتاب الله بالشرح والإيضاح ، واشتمل هذا الشرح على جوانب مختلفة من الثقافات ، كالأخبار ، والقصص ، وسيرة النبى وأصحابه وأخبار العرب ، والأمم البائدة ، وما جاء فى الكتب المقدسة مما يوضح قصص القرآن إلى غير ذلك .

وجلس إلى علماء المساجد تلاميذ من العرب والموالى الفرس وغيرهم من أبناء الأمم المفتوحة وكان هؤلاء العلماء يبسطون القول لتلاميذهم باللسان الذى يفهمون ، فكان الأسوارى — مثلا — يتكلم فى مجلس البصرة بالعربية والفارسية يفسر القرآن للعرب والفرس على السواء .

ونشأ بعد ذلك جيل جديد من المثقفين الذين رضعوا الثقافة العربية ، التى غلب عليها القرآن وتفسيره والحديث—ممزوجة بلبان أعجمى ، هذا الجيل هم طبقة الموالى — وكانت معرفتهم بالعربية معرفة محدودة — سمها مدرسية إن شئت — ، وكانت رغبتهم فى فهم القرآن ومعرفة أسرار إعجازه فى ازدياد ، لأنهم لم يدركوها بسهولة إدراك العرب لها . وقد دفعت هذه الرغبات علماء العرب وغيرهم ممن أتقنوا العربية من الموالى إلى التزود من اللغة لشرح غريب القرآن ، ومشكل بيانه ، مستعينين فى ذلك بالشعر قدر الإمكان .

وزاد الإقبال على دراسة القرآن واللغة والشعر ، فبدأت حركة كبيرة لجمعهما ، وخرج العلماء من العرب والموالى للتحصيل من البوادى ، فتجمع لديهم كثير ، وامتلأت صحفهم وخزائنهم .

وكانت حركة الجمع تهدف — أول الأمر — إلى خدمة التفسير ، ثم إلى التنقية اللغوية . لكن هذا المحصول الغزير لم يخل من الخلط والانتحال وكان هذا نتيجة الإسراف والتنافس للحصول على الغريب . ومهما قيل فيما شاب تلك الحركة فإنه لا يمكن إنكار فضلها على اللغة والتفسير ، ولا يليق بنا أن نتجاهل نفعها العظيم إذ كانت ذخيرة لا تنفد ، ظل الخلف ينفقون منها ويتناولونها بالتنقية والتصفية ، والتبويب والدراسة والشرح ، ويستخرجون القواعد والأصول . . إلى غير هذا مما كان الشغل الشاغل لعلماء القرون التالية .

وبدأت مع هذه الحركة — أو فى مرحلة متأخرة قليلا — حركة التأليف فى اللغة والشعر ، وظهرت فى أفق تلك الدراسات الكتب اللغوية ، والشعرية . وتميزت المرحلة الأولى فى كتب اللغة بالجمع فى صور شتى ، فقد تجمع كل مجموعة من الألفاظ تحت اسم فى كتاب ، أو باب من كتاب ، يجمعها تقارب المعنى أو تضاده ، أو تقارب المبنى ، أو صيغ الألفاظ ، واستعمالاتها الصحيحة ، أو جمع الألفاظ اللغوية فى ترتيب خاص حسب الحروف الأبجدية ، أو حسب مخارج الألفاظ . . . إلخ .

وكان من نتائج اختلاط العرب بغيرهم أن شابت اللسان العربى بعض الشوائب الغريبة فانتابته ليونة أحياناً ، وتحريف ، أو تداخل بعض ألفاظ أعجمية . وأخذت اللغة تنحرف عن بداوتها ، وتفشى اللحن ، واختلطت اللهجات ، واضطرب اللفظ بين هذا وذاك ، ونشأت لغة جديدة فى الأمصار الإسلامية تناقلتها الألسنة ، وصارت لغة التعبير اليومى — العامية — تختلف

عن اللغة الأصلية — لغة القرآن . واتخذ الأدباء والكتاب والشعراء لأنفسهم لغة وسطاً بين هذه وتلك ، وظهر هذا الأسلوب الجديد واضحاً فى كتابات ابن المقفع وشعر بشار ، وهو أسلوب يجمع إلى السهولة وتجنب البدوى الوحشى — التنميق والتهذيب مما يساير حياة الحضارة والمدن[1] .

واحتدمت المعارك اللغوية بين الشعراء واللغويين ، وبين اللغويين أنفسهم نتيجة هذه التيارات الجديدة . وظهرت طبقة الموالى بين هؤلاء وهؤلاء ، وأخذوا يدرسون العربية دراسة منهجية تعتمد على القواعد والمنطق ، وحاولوا أن يخضعوا اللغة للقياس ، فخطأوا العرب أحياناً واعترضوا على بعض ألفاظ القرآن ، وتعبيراته أحياناً . وغالى بعضهم فى الشعوبية فعاب على اللغة المجاز ، والترادف ، والأضداد وغيرها من الظواهر الأخرى .

وتطرف منهم ذوو الأغراض فدسوا على اللغة كثيراً مما يجدون فيه شبهة من قريب أو من بعيد ، ولم ينقصهم الشاهد لأنهم اصطنعوه كلما رأوا إليه حاجة .

وقام بعض علماء المسلمين المخلصين يذودون عن العربية ، ويدفعون عنها ذلك كله ، وبذلك برزت حركة التنقية اللغوية ، وكان للقرآن فيها شأن . وقد بدأت هذه الحركة بدء القرن الثانى وقام جماعة من العلماء دأبهم أن يجعلوا نصب أعينهم « تحديد الاستعمال اللغوى الصحيح »[2] فوجه هؤلاء همهم إلى الأعراب ، يلتقطون من أفواههم اللغة السليمة ، ووضعوا القواعد والأصول يضبطون بها الإعراب على أصول من الاستقراء الدقيق والملاحظة والإحصاء للغة الأصيلة القديمة ، واتجهوا إلى الشواهد الصحيحة وحصروها فى العصر الجاهلى ، وصدر الإسلام بشرط الأصالة والبداوة وعدم التطرف إلى الشمال ، لهذا اعتبر عدى بن زيد من بين من لا يستشهد بشعره ، واعتبر أبو عمرو بن العلاء الفرزدق وجريراً ممن لا يستشهد بشعرهم كذلك .

وصارت اللغة الفصحى هى لغة البدو ، وهى المنشودة فى دراسات اللغة لتخليصها من الدخيل . وصارت لغة القرآن الحكم بين اللغات ، والتى تفصل بين الفصيح وغيره ، فالأصمعى فى القرن الثانى وأول الثالث — يرفض لفظ زوجة بدلا من اللفظ القديم زوج — وهى صيغة جديدة ورد عند الفرزدق من قبل — رعاية لاستعمال القرآن اللغوى[3] .

وأخذت هذه الدراسات تنمو وتكتمل منذ أواخر القرن الثانى بعد أن ألف سيبويه كتابه وفجر القرن الثالث حيث أخذ الخلاف بين مدرستى البصرة والكوفة يبرز ويضطلع به أئمة النحو من الفريقين .

وحاول علماء النحو من أول الأمر أن يخضعوا اللغة لمقاييسهم تبعاً للقواعد والأصول التى أوجدوها ، وتعرضوا للشعراء ، وأخذوا عليهم كلما رأوا منهم ميلا إلى مخالفة تلك المقاييس أو انحرافاً ، واتهموا المخالف باللحن ، وشاعت هذه الكلمة معبرة عن الأخطاء اللغوية وخاصة ما يتعلق منها بالإعراب . يحكى عن أبي بحر عبد الله بن إسحاق الحضرمى أنه سمع الفرزدق ينشد :

وعضّ زمان يابْنَ مَرْوانَ لم يدعْ   مِنَ المال إلا مُسْحَتاً أو مجلفُ

فقال له : على أى شيء ترفع أو مجلف ؟ فقال : على ما يسوءك وينوءك . وساء الفرزدق كثرة تتبع أبي إسحاق له فى شعره ، ولم يطق عليه صبراً فهجاه بقوله

فلو كان عبد الله مولى هجوته   ولكن عبد الله مولى مواليا

فقال له ابن أبي إسحاق : ولقد لحنت أيضاً فى قولك مولى مواليا : وكان ينبغى أن تقول : مولى موال (٢) .

تلك دراسات النحو * أما دراسات اللغة وألفاظها بفصيحها وغريبها فقد استقل بها جماعة اشتهروا باسم اللغويين ، ويذكر على رأسهم أبو عمرو بن العلاء ، وكان أعلم الناس بأمور العرب وبالغريب والعربية والشعر وأيام الناس (٣) وكان إلى جانب هذا كله عالماً فى القرآن وعلومه ، كثير الجمع عن الأعراب ، غزير المحصول ، يروى أنه كان يملأ بيته إلى قريب السقف بما جمع . ومن هؤلاء النضر ابن شميل ويلقب بالمازنى (٤) ، أقام بالبادية زمناً طويلا فأخذ عن فصحاء الأعراب . ومنهم الكسائى (٥) وكان ينتقل فى البلدان وينتقل إلى

بوادى الحجاز ، ونجد وتهامة ، فرجع وقد أنفد خمس عشرة قنينة حبراً فى الكتابة عن العرب سوى ما حفظ (٢) .

والأصمعى — عبد الملك بن قريب — زعيم جماعة النقاد اللغويين ، وصاحب رأى فى ظاهرة التنقية والتدقيق فى اللغة ، قال الأصمعى : كنت أغشى بيوت الأعراب أكتب عنهم كثيراً حتى ألفونى » .

واعتمد هؤلاء العلماء فى دراساتهم اللغوية . وفى تحقيق الألفاظ على لغة البدو الفصحاء وذلك بالسماع أو بالرواية عن الثقاة من العلماء السابقين ، وكانوا يدونون ما يسمعون من الأعراب مباشرة كتابة (٢) .

واستهلت مرحلة النقد اللغوي بالنظر والتأمل والمراجعة ، ومن ثم أمكن التعرف إلى الخصائص والقواعد والحدود لضبط اللغة وقياسها ، وتنقية ما جمع منها مما شابه من أخلاط وفهم ما جاء من ألفاظها عن طريق الشرح ووضع المعاجم لتحديد المدلول ، وقد تطورت هذه من معاجم جزئية في أبواب معينة تدور كلماتها في موضوعات متقاربة محدودة إلى معاجم جامعة شاملة .

وكانت هذه المرحلة ضرورية لاستقرار الدراسات اللغوية ، وخطوة أولى لوضع منهج يسير عليه اللغويون ، حتى لا يخلطوا بين اللهجات الفصيحة وغيرها من الأعجمي والوحشي وغير الفصيح يقول ابن خلدون : لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب واستنبطت القوانين لحفظها ، فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضعه عندهم ميلا من هجنة المتعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية ، فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث ، فشمر كثير من أئمة اللغة واللسان لذلك وأملوا فيه (١) .

ومن اللغويين والنحاة الذين ساهموا في تطور البلاغة والنقد : أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء (ـ ٢٠٧ هـ) صاحب « معاني القرآن » وهو كتاب يعنى بالتراكيب اللغوية والاعراب والاساليب ، وفيه إشارات كثيرة الى بعض الفنون البلاغية كالتشبيه والمثل والاستعارة والمجاز والكناية والاستفهام وخروجه عن معناه الحقيقي والانتقال من مخاطبة الشاهد الى الغائب والتقديم والتأخير وغيرها . وابو عبيدة معمر بن المثنى (ـ ٢٠٨ هـ) الذي ألف كتاب « مجاز القرآن » ليفسر كتاب الله ويوضح ما فيه من غريب اللغة ووجوه نظمه التي لها نظائر في كلام العرب .

وأبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (ـ ٢١٦ هـ) الذي كانت له آراء نقدية تمثل ذوقه والفترة التي عاش فيها . ومن كتبه النقدية « فحولة الشعراء » وهو كتاب جمع آراءه في بعض الشعراء الفحول ، وهذه الآراء تتصل بالذوق أكثر من اتصالها بالقاعدة .

وأبو العباس محمد بن يزيد المبرّد (ـ ٢٨٥ هـ) صاحب « الكامل » الذي عرض لكثير من القضايا البلاغية والنقدية المعروفة في عهده .

وأبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (ـ ٢٩١ هـ) مؤلف « قواعد الشعر » الذي تحدث فيه عن الشعر وأركانه وفنونه وأقسامه ، وهي عنده أربعة : أمر ونهي وخبر واستخبار ، وهذه الأصول تتفرع الى مدح وهجاء ومراثٍ واعتذار وتشبيب وتشبيه واقتصاص أخبار . ومن مقاييسه في استجادة الشعر استقلال البيت بمعناه بل استقلال كل شطر من شطريه بمعناه ليصبح مثلا سائرا . وليس في الكتاب تحليل وتعليل وايضاح لما في الكلام من صور أدبية جميلة وايحاءات بديعة . وقد أشار القدماء الى أن ثعلبا ليس بالناقد الذي يستطيع أن يحكم على تلك الفترة ، ولذلك وقف عند ثقافته وتخصصه في الرواية واللغة ولم يَدَّعِ التقدم في علم شعر المحدثين قال تلميذه الصولي عنه وعن المبرد : « ولا ادّعيا التقدم في علم شعر المحدثين وأوائلهم من لحق اول دولة بني العباس ولا انهما اذا تعاطيا مثل شعرهم أطاقاه وقدرا على أن يقولا مثله . ولا تضمنا العلم بلفظة لفظة منه وتمييز نادره ووسطه وما كان دُوناً منه إلاّ بردّ لَحْنٍ أو خطأ في لغة ، ولا ادّعيا التقدم على غيرهما في علم العروض والقوافي والنسب والرسائل والمكاتبات والبلاغة ومعرفة استراقات الشعراء وأخذ بعضهم من بعض والمحسن منهم في ذلك والمسيء » (١) . وكان تأثير الكتاب والشعراء أعمق ، لانهم ألصق بالبلاغة والنقد .